

المرجعية الدينية في السيرة الذاتية

"قصة حياتي" لفاطمة آيت منصور عمروش أنموذجا

أ/بوزيد مولود

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية العلوم الإنسانية.

جامعة مولود معمري - تيزي وزو - الجزائر

الملخص

ما زالت الرواية في العالم العربي تحظى بالاهتمام أكثر من غيرها من الأجناس التخيلية، ولا تحظى أشكال الكتابة عن الذات بالاهتمام نفسه، بل الأكثر من ذلك كثيرا ما ينظر إليها بازدراء واستخفاف كونها مباشرة وسطحية. كما أنّ حظها من الدراسة والنقد مازال ضعيفا، وقلما نجد دراسة حول اليوميات أو المذكرات، أو الاعترافات....، وإنّ حظيت السيرة الذاتية باهتمام نقدي أكثر من غيرها، فأغلب ما أنجز عنها يعد على رؤوس الأصابع. كما أننا فضلنا إنجاز مقال حول السيرة الذاتية النسائية، لسبب علمي وموضوعي، ذلك هو قلة ما حظيت به الكتابة النسائية التأسيسية من العناية مقارنة بالأنواع الأدبية التي كانت أكثر حظا وأرقى منزلة في نفوس الباحثين والنقاد في العقود الأولى من القرن العشرين.

Abstract

The Romans in Arabic world take a good attention than other Imaginary races, about biography, don't has the same attention. In addition to this: they are often seen with disdain and contempt because

they are direct and superficial. Also, the luck of the study and criticism: steals weak and rarely we find a study about the biographies or diary or memoirs or confessions.... If the biographies has an interesting; more than other; most of what has been written is little. We also preferred doing an article about women's biographies; this is for a scientific and objective reason which's is the less of luck of women's writing given to the founding of care comparing to literary kinds which has good luck and most prestigious status in the hearts of critics and researchers in the first decades of the 20th century.

السيرة الذاتية: Autobiographie

قبل أن نخوض في الحديث عن السيرة الذاتية، حرى بنا أن نشير إلى أنّ السيرة هي فن رأى بعض الدارسين أنّه وجد طريقه حديثاً إلى فنون الأدب وعُدّوه «أحدث الأجناس الأدبية على الإطلاق»¹، و رأوا أنّه «فن مستحدث عند العرب قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأخرى التي قرأها لها»²، ومن الدارسين من ذهب إلى كون السيرة فنا قديما تعود جذوره إلى «العهد اليونانية القديمة المتألفة»³، وقد ربط كثير منهم نشأة السيرة بالتاريخ فهي فن يدون حياة إنسان، و تاريخه المرتبط بالجماعة، والمتأثر بالأحداث الاجتماعية والتاريخية. ففي «أحضان التاريخ إذن نشأت السيرة وترعرعت، واتخذت سيمات واضحة، وتأثرت بمفاهيم الناس عنها على مرّ العصور»⁴. وقسم النقاد السيرة إلى صنفين:

غيرية (Biographie): يتحدث فيها الأديب عن شخص آخر، فيتناول حياته بالترجمة المفصلة، ويقدمها لجمهور القراء واضحة مكشوفة، بمحاسنها وعيوبها، بإيجابيتها وسلبياتها.

ذاتية: (Autobiographie): يترجم فيها كاتبها حياته ويكشف لقرائه ما خُفي من الأمور تتعلق بمسيرته. ووجدوا أنّ كاتب السيرة أقدر على رسم الشخصية، وأعمق تحليلاً لها، فكاتبها «يقدم الشخصية من الداخل إلى الخارج بمعنى أنه يقدم الانفعالات، ثم أثرها الخارجي، أو بروزها في شكل أحداث. أما كاتب السيرة الغيرية فليس أمامه إلا أحداث في أكثر الأحيان، منها ما يتعمق إلى الداخل، أو يقدم الشخصية من الخارج إلى الداخل»⁵.

لذا كانت السيرة الذاتية أوغل في الصدق، وأوقع في النفوس، لأن مؤلفها صاحبها فلا يوجد هناك وسيط لعرض أحداث حياته وأرائه ومواقفه في الحياة، وكلتا السيرتين لا تنتميان إلى عالم الأدب إلا إذا تحلنا بالأسلوب الأدبي. الذي يعتمد على صدق الأداء ورسالة العبارة، وروعة الألفاظ وجمال التصوير، وقوة الصراع الذي يمنح السيرة الحركة والجمال.⁶

نعرف أولاً بالسيرة الذاتية، وإن كان هذا الأمر على ما يبدو عليه من سهولة قياسا بصعوبة الاتفاق على المقومات العامة التي تصوغ للسيرة الذاتية وضعا معتبرا بين الأجناس الأدبية الأخرى. ومن هنا كانت تعاريف النقاد والدارسين حسب بعض الباحثين لهذا النوع من الكتابة يتراوح بين البساطة (السطحية) أحيانا، وبين السعي لتلبية ضرورات منهجية تعسف صاحب التعريف في تحديد زوايا وجوانب تخدم ما يريد الوصول إليه من نتائج في بحثه وأدراسته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن صعوبة التعريف بهذا النوع من الكتابة كونه نقطة تتلاقى فيها موضوعات عدة وأساسية، فهو نوع- يجمع بين عديد من الأجناس وحتى العلوم وهو ما أشار إليه شاكر تهايني: «مرونة هذا الجنس الأدبي، وضعف الحدود الفاصلة بينه وبين الأجناس الأدبية الأخرى، مما يجعله قادرا على التجول بداخلها بحرية»⁷. فالسيرة الذاتية جنس يعتبر مفصلا بين ثلاثة أعضاء: العالم (الأخر)، الأنا (الذات)، والنص. وسنقف في هذا المقال على أشهر منظر للسيرة الذاتية.

لقد كان فليب لوجون من أكثر الباحثين تحريا للدقة في صياغة تعريف للسيرة الذاتية، وقد حاول " فليب لوجون" * رسم حدود السيرة الذاتية في كتابه (الميثاق الأوتوبوغرافي)، 1975، وقد كانت ومازالت كتاباته ذات أثر كبير على جل الدراسات التي اهتمت بالموضوع، ويعتبر تعريفه إلى يومنا هذا من أكثر التعريفات دقة وتفصيلا ومناقشة لأهم الإشكالات التي طرحت في مناقشة هذا الجنس.

عليه يمكن أن نستشهد بتعريفه الذي جاء فيه: وبعد تعديل طفيف سيصبح حد السيرة الذاتية كالآتي: الحد: «حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك

عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة»⁸ ومن ثم جعل لوجون هذا الحد في أربعة عناصر تقوم عليها السيرة الذاتية وتتضمن:

***شكل اللغة:**

أ- قصة/حكي.

ب- نثري.

***الموضوع المطروق:** حياة فردية، و تاريخ شخصية معينة.

***وضعية المؤلف:** تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية) و السارد.

***وضعية السارد:**

أ/ تطابق السارد و الشخصية الرئيسية.

ب/ منظور استعادي للحكي. (أي استحضار عن طريق الذاكرة لأحداث جرت في

الماضي البعيد أو القريب).⁹

ويرى لوجون بعد صياغته لهذا التعريف ووضعه لهذه الشروط- أنه لا يمكن الخلط بين السيرة الذاتية و بين الأنواع الأدبية الأخرى التي لا تجتمع فيها كل الشروط السابقة الذكر، وفي حالة اختلال شرط من هذه الشروط، فإن السيرة الذاتية سوف تخرج إلى غرض آخر حسب الشرط المفقود، وتبعاً لذلك تنشأ الرواية الشخصية في حال فقدان الشرط الثالث، أي عدم تطابق المؤلف والسارد.

ورغم ما يبدو من تماسك نظري في هذا التعريف المميز للسيرة الذاتية الذي ينأى بها عن أي خلط مع الأجناس الأدبية، إلا أن " فليب لوجون " نفسه كان يشكك في مصداقية ودقة هذا التعريف فقد رأى أن «النجاح في إعطاء صيغة واضحة و كلية للسيرة الذاتية سيكون في الحقيقة فاشلاً»¹⁰.

ورغم تحفظ فيليب لوجون في الظفر بصيغة واضحة و كلية للسيرة الذاتية، إلا أن تعريفه يبقى من أهم التعريفات المعتمدة ضمن هذا المجال، فالتحديد الذي أصبح كلاسيكياً، والذي اعتبرت السيرة الذاتية بموجبه جنساً أدبياً هو تحديد "فليب لوجون".

لكنه سرعان ما أعاد النظر في أطروحته المتعلقة بجنس السيرة الذاتية في كتابه الأخير: " أنا أيضا " (moi aussi) ، ونقد منهجه في كتاب "الميثاق السير ذاتي" عندما جاء بتعريف عام جدا مفاده « أن أي نص يعبر فيه الكاتب عن حياته ومشاعره وأحاسيسه هو سيرة ذاتية»¹¹، وأثار مسألة اسم العلم أو ارتباط الأنا اللغوي في النص السير ذاتي بمرجعية خارجية تجسمها هوية واقعية مثبتة على وجه الحقيقة لا المجاز في سجلات الحالة المدنية.¹² مع كل هذا فإن السيرة الذاتية تبقى من أكثر الفنون الأدبية، احتفاءً بالنقل الأمين لحقيقة الإنسان وتمدنا بحياته على نحو أصدق مما تمدنا به الأجناس الأخرى، فهي أعظمها تحريا للصدق فيما تصوره من حياته.

هذا هو شأن " فاطمة أيت منصور عمروش " التي أخذت القلم و كتبت سيرتها ذاتية " قصة حياتي " في وقت لم يكن يسمح للمرأة أخذ القلم والإفصاح عن ذاتها. لنا بحول الله عودة إلى هذا النص " قصة حياتي " فيما يأتي من الدراسة لتقصي ما فيه من مرجعية الدينية.

التعريف بالكاتبة:

فاطمة أيت منصور عمروش كاتبة وشاعرة من أصل قبائلي وهي أم الكاتبين جون الموهوب عمروش ومارغريت طاووس عمروش، ولدت عام 1882 بقرية (تيزي هيل) التابعة لبلدية آيت محمود بدائرة بني دوالة (منطقة في القبائل، الجزائر)، وتوفيت في 09/جويلية/ 1967. في (بريتاني) (Bretagne) فرنسا. على عمر يناهز 85 سنة.

عاشت فاطمة أيت منصور عمروش حياة مثيرة وصعبة تتميز بالحزن والمنفى، وبقيت طوال حياتها ودية لثقافتها القبائلية «لقد بقيت دائما تلك القبائلية، رغم 40 سنة التي قضيتها في تونس وعلى الرغم من تعليمي الذي كان فرنسيا، لم استطع مطلقا أن ارتبط بعلاقة حميمة لا مع الفرنسيين ولا العرب، بقيت دوما المنفية الأبدية تلك التي لم تشعر أبدا أنها في دارها في أي مكان»¹³.

وفي سنة 1931 عملت بمساهمة ابنها (جان، وطاووس) على كتابة وترجمة قصائد وأغاني أمازيغية من التراث التقليدي الشفوي القبائلي.

بعد سنة من رحيلها 1968، تم نشر سيرتها الذاتية باللغة الفرنسية (قصة حياتي، Histoire de ma vie)، التي كتبها في تونس عام 1946 والتي تروي فيها معركة المرأة القبائلية في فترة الاستعمار الفرنسي وحياتها في مجتمع تقليدي محافظ. وفي الأخير نشير إلى أن فاطمة أيت منصور عمروش أول امرأة افريقية، عربية، جزائرية، متعلمة.

التعريف بالكتاب " قصة حياتي، Histoire de ma vie " :

تحكي هذه السيرة الذاتية - قصة حياتي - بصفة عامة حياة امرأة جزائرية- قبائلية، عانت كثيراً في حياتها نتيجة فعل لم ترتكبه هي. وأحداث هذه السيرة الذاتية تبلورت قبل الاستقلال، ولم ترّ النور إلا بعده، بعد موت الكاتبة وهذا بطلب منها.

يمتد الكتاب على مدى 220 صفحة، وهو مستهل بتقديمين لكل من فانسون مونتي، Vincent MONTEIL، وكاتب ياسين. KATEB Yacine وقد اشتملت هذه السيرة على ثلاث فصول، وكل فصل ينقسم إلى مباحث وهي بالترتيب الآتي:

I. **طريق المدرسة: le chemin de l'école**. أمي: Ma mère، ثدرث أفلئ: Mon Taddert-ou-Fella، دروس عادية Les cours normal، قريتي كما عرفتها L'hôpital des Aïth- village tel que je l'ai connu، مستشفى آث منقلات: Maneguleth:

II. **زواجي: Mon Mariage**، إغيل أعلي: Ighil-Ali، موت الجد حسن عمروش و تشتت الأسرة: Mort du grand-père Hacène-ou-Amrouche et décadence de la famille

III. **المنفى في تونس: L'exil de Tunis**، الرحيل: Les transplantés، من منزل لآخر: D'une maison à l'autre، طريق الوادي: Rue de la rivière، ميناء رادس الأمين: Le havre de radés

IV. الخاتمة: Epilogue .

أما في الصفحات الأخيرة فنجد بعض القصائد من تأليف الكاتبة: (لا تكن غير صبور، أنا مثل الصقر، الخطافة، يا إلهي...).

أضف إلى هذه الأبيات إلى مجموعة الصور الفوتوغرافية المضمنة والتي تعد بمثابة الوثائق التي تؤرخ بطريقة مباشرة وتحدث بمفردها وتدعم الكثير من المعطيات التي قدمتها فاطمة عن نفسها ومحيطها الذي عاشت فيه في منطقة القبائل.

التعريف بالكاتبة:

تحكي لنا فاطمة قصة حياتها، وما عانته هي وأمها التي تزوجت من رجل يكبرها سنا، أصيب زوج عيني بمرض أدى إلى وفاته، بعد وفاة زوجها طلب منها أخوها أن تعود إلى بيتهم رفقة أولادها لكنها رفضت. فأعلن أخوها أمام الجميع عن طردها من العائلة. تبرأت العائلة من عيني الأرملة الشجاعة وآثرت العيش مع طفلين الابن الأكبر لم يتجاوز سنه خمس سنوات، أما الأصغر فكان في سن الثالثة من عمره.

كانت عيني غير حذرة، وفي ساحة منزلها كان يسكن رجل من عائلة زوجها السابق، أحبته وأحبها، وقد جرى قد جرى، أصبحت حاملا، ولا يريد الرجل أن يعترف بأبوية للطفل. إن عقوبة انتهاك العادات تكون بالطرد أو الموت، لكن عيني لجأت إلى المحكمة الفرنسية، وطلبت منها حمايتها، فأصدرت المحكمة قرارا بعدم التعرض للأرملة و اليتيمين. قاطع أهل القرية عيني حتى أنه ليلة ولادة فاطمة أنجبت عيني وحدها، لا أحد حولها ساعة المخاض كي يقوم بمساعدتها، لدرجة أنها قطعت الحبل السري بأسنانها، ما عدا عجوز حضرت بعد يوم من ولادة الفتاة.

في اليوم التاسع من ولادة فاطمة، وضعتها أمها في حضنها، ثم أمسكت طفلها. وذهبت لترفع دعوة ضد والد فاطمة عند القاضي، كانت تريد أن يعترف بها ويعطيها اسمه، لكنّه رفض لأنّه كان على علاقة مع فتاة من في القرية من عائلة مرموقة، فهدده بالقتل إن تركها، لذا كان خائفا. لم يكن في وسع المحكمة أن تفعل شيئا لنا، لأنّ البحث عن الأبوة في تلك الفترة كان ممنوعا.

إن فاطمة طفلة غير شرعية، لا يريد والدها الاعتراف بها، ما جعلها تعاني منذ أن خرجت إلى هذا الوجود. طغى اليأس على عيني إلى درجة أنها قد حاولت قتل ابنتها وذلك برميها في حوض من المياه الباردة، لكن الفتاة لم تمت. كانت الأم خائفة على مصير ابنتها، ماذا ستفعل لها؟ كيف ستحميها من شر الناس؟.

وسمعت بوجود أخوات يستقبلن الفتيات الصغيرات ويهتمون بهن بواقضية، فلجأت إليهن ظنا منها أن ابنتها ستكون بخير ولن يصيبها أحد بمكروه، لكنها اضطرت إلى إخراجها من هذا المركز وإعادتها إلى المنزل. فالأخوات كن يسلطن أقصى العقوبات على الفتاة الصغيرة. عادت فاطمة إذا للعيش مع أمها في المنزل، و في عام 1886 ذهبت لتتابع دراستها في مدرسة البنات بمنطقة فورت ناسيونال - الأربعاء ناث ايراثن حاليا - .

و في عام 1892 تحصلت فاطمة على شهادة تعليم بسيطة، لتذهب بعدها إلى العمل، بمستشفى الأخوات البيض " آيت منقلات " بميشلي، عين الحمام، اعتنقت المسيحية وأصبحت تذهب إلى القديس.

في عام 1898، تزوجت فاطمة من رجل مسيحي من إغيل أعلي يدعى " بلقاسم " وعمرها لم يتجاوز 16 سنة. أنجبت منه ثمانية أطفال. لتهاجر بعدها إلى تونس وتستقر هناك مع أسرتها وكانت العائلة في كل عطلة تعود إلى إغيل أعلي.

بدأت فاطمة تفقد أطفالها الواحد تلو الآخر في تونس حيث أنها فيما تقارب السنة 1939 - 1940، فقدت ثلاث أبناء. حيث توفي ابنها " لويس محند صغير " في أوت 1939، ثم بعد عام تقريبا توفي ابنها " بول " في 1940، ثم ابنها " نويل " في السنة نفسها، في أكتوبر 1958 توفي ابنها " هنري "، في جانفي 1959، توفي زوجها " بلقاسم ".

وتواصل حديثها تقول بعد كل هذه المعاناة والآلام " وكم من مرة قلت في نفسي أي موت أفضل لكي أحتفي دون آلام دون أن يراني أحد أموت على مراحل كالمشلولين، ثم أترجع وأقول: أستطيع أن أقدم خدمات أخرى لابنتي، أواسيها، أعلمها أشعارا وأقوالا مأثورة... أه كم هي جميلة اللغة القبائلية ومنسجمة لقد كانت ملاذي طيلة سنوات منفاي".¹⁴

المرجعية الدينية:

شغل الخطاب الديني مساحات واسعة في المتون الأدبية، باعتباره عاكس للثقافة، ومشخص للمنظومة الفكرية التي ينتهجها أفراد المجتمع، الذين يفسحون للذين مجالاً واسعاً في حياتهم كتعبير عن الالتزام والاستقامة. عليه ستحاول دراستنا التفتيش عن تجليات المرجعية الدينية في السيرة الذاتية " قصة حياتي "لفاطمة آيت منصور عمروش".

لقد عاشت " فاطمة آيت منصور عمروش " ظروف اجتماعية قاسية ، بحكم أنها ابنة غير شرعية تنكر لها أهلها، وتبرأ منها سكان قريتها الذين جرّدها من كل حقوقها، فأصبحت عبئاً ثقيلاً على المجتمع تقول « إنَّ العالم سيئٌ وطفل الخطيئة سيصبح ضحية المجتمع، خاصة في المجتمع القبائلي». ¹⁵ هذا ما أجبر أمها على أخذها إلى دار الراهبات بوضعية حماية لها من حقد وضغينة المجتمع الذي أشبعها المرارة والذل، وإيماناً منها أن هناك لن يصيبها أيّ مكروه، فكانت هذه النقطة بمثابة البدايات الأولى للاحتكاك بالأفكار الأوروبية (الذين المسيحي*).

كان ذلك إثر انتهاج فرنسا سياسة فتح دور اليتامى تعمل على حمايتهم وتربيتهم ظاهرياً، وتعمل على ترسيخ الثقافة المسيحية الغربية الدخيلة باطنياً: « اتَّجه المبشرون في بداية عملهم نحو أبناء الفقراء في الغالب ثمَّ الأطفال اليتامى بالخصوص». ¹⁶

ولكن بقاء " فاطمة " في هذا الميتم لم يدم إلاّ عاماً واحداً فقط (1885-1886)، وذلك نظراً للمعاملة السيئة التي تعرّضت لها هناك من طرف الأخوات. ثمَّ انتقلت عام 1886 إلى " الأربعاء ناث إراثن"، محطتها الثانية بعد الميتم. لقد كانت هذه المرحلة من حياتها منعرجاً حاسماً في تكوين شخصيتها المزوجة الثقافة؛ إذ اهتمت منذ صغرها (وخلال هذه المرحلة) بمطالعة كل ما كانت تجده بين يديها ممّا جعلته المدرسة الفرنسية في متناول طلبتها، قصد تحقيق الغزو الفكري، حيث تقول " فاطمة آيت منصور عمروش": « انْكبُّتُ على المطالعة خلال السنوات الأخيرة ... كان في المدرسة مكتبة تعجّ بالكتب أمثال قصائد فرانسوا كوبي، ومؤلفات فيكتور هيغو ...» ¹⁷ لقد أعجبت فاطمة بهذه الكتب إلى درجة أنها

خلال العطلة الصيفية كانت تتكبّ عليها علها تقلل من وحدتها وإحساسها بالعزلة: « عندما تخرج أمي ... كنت أغلق الباب... وأستذكر كل ما قرأته إلى أن تعود ».¹⁸

يتجلى -من خلال هذه المرحلة من حياتها- بداية اندماج فاطمة في الثقافة الدخيلة، بدليل أنه عندما عرفت أن البلدية ستضطر إلى غلق المدرسة شعرت بالأسى نتيجة تعلقها الشديد بها: «... خارج نطاق مدرستنا التي لن يتأخر غلقها مع الأسف الشديد»¹⁹، وهو ما يجسد حبها الشديد للمدرسة الفرنسية، لا سيما أنها جعلت منها ملجأ تهرب إليه من المجتمع القاسي الذي ظلمها وسلبها كل حقوقها. ويظهر أيضا في إعجابها وانبهارها بالأساتذة الفرنسيين أمثال السيدة مفال (Malaval) حيث تقول: « أكتب هذه القصة في ذكرى والدتي... والسيدة " مفال " التي منحتني حياتي الروحية »²⁰. يجسد هذا القول كيف أن الغذاء الروحي الأخلاقي يلعب دورا مهما في استمالة الشخص إلى اعتناق الدين المسيحي كما قال الجنرال " لافيغري ": «عندما نربح ثقة الشعوب بواسطة الأعمال الخيرية وتعليم الأطفال، فإن كل شيء يكون على ما يرام...»²¹

بهذا وجدت السياسة الفرنسية الانتهازية في شخص " فاطمة " طعما سهلا وأرضا خصبة هيئتها الأوضاع الاجتماعية التي عاشتها، ففي الوقت الذي رفضها المجتمع القبائلي، فتح لها المجتمع المسيحي أبوابه ولأمثالها، فكان ملجأ في البداية والظاهر، وسلطة تمتلكها روحيا في النهاية والباطن.

أصبحت فاطمة تعتنق الدين المسيحي. بعد التحاقها بمستشفى (آيت منقلات)، بدأت تتعرف عن قرب على الديانة المسيحية، والتي انتهت باعتمادها. تقول إنه قبل أن تلتحق بالمستشفى كانت تظن أنها ستجد هناك جو من الصداقة مثل الذي كان في المدرسة (ثادارت أوفلاغ)، لكن لما وصلت خاب ظنها لأنه في المستشفى الكل كان يتكلم عن حب الله، وماذا سيفعل من أجل كسب حب الله.²²

اعتنقت فاطمة الدين المسيحي إذن، إثر فشلها في الاندماج في المجتمع القبائلي الإسلامي. وتصرح، أنها في البداية لم تكن تشارك في الصلوات الدينية التي كانت تقام داخل

كنيسة المستشفى، بل كانت تكتفي بالبقاء في الرّواق والاستماع إلى الموسيقى التي كانت تعجبها كثيرا، لينتهي بها المطاف كما تقول: « انتهيت بالدخول إلى الكنيسة وحضور الصلوات؛ فأنا أحبّ الاستماع إلى أغاني الكنيسة...»²³ وأصبحت تقوم بالممارسات الدينية المسيحية بعد اعتناق المسيحية مثل الذهاب إلى الكنيسة من أجل الدعاء، تقول: « أرغمت نفسي على البقاء مدة طويلة في الكنيسة، أطلب حرارة من الله والعذراء مريم حتى يساعداني. وتضيف أنها أصبحت متمسكة بالدين كثيرا، وكانت تتمنى أن تستمع يوما لتمثال العذراء يتكلم معها ويملي عليها خطواتها، وكم رجته أن يفتح لها بابا وسط العتمة التي تعيش فيها». ²⁴

إضافة إلى هذا فلقد تأثرت فاطمة كثيرا بالأخوات اللاتي وهبن أنفسهن إلى الله، إلى درجة أنها كانت تريد أن تصبح مثلهن تقول: « فكّرت بجدية أن أصبح مندبنة مثل الأخوات اللاتي ضحين بشبابهن، من أجل كسب حب الله...»²⁵

هذا في الوقت الذي يدين فيه المجتمع الجزائري كل من يعتقد المسيحية تاركا دينه الإسلامي. إذ يواجه معتقو هذا الدين صعوبة كبيرة في المحيط الاجتماعي الإسلامي القبائلي كما يوضح ذلك هذا القول: «تواجه الدّعاية المغرضة المسيحية في مناطق القبائل دائما أمامها - ونحن نؤمن بذلك - عائقا لا يمكن تخطيه في حدود التّضامن الذي يربط الفرد بالعائلة وبالخزوبة في القرية وإلى العرش»²⁶، حيث أنّ أفراد المجتمع القبائلي يتفقون على رفض الشخصية المسيحية في كل تشكيلاتها الاجتماعية. تقول الكاتبة: « النقيت السيدة (أشاب) في يوم من أيام النزهة؛ ولكوني مسيحية، وهي مسلمة؛ ادّعت بأنها لا تعرفني»²⁷.

لقد ابتعدت (فاطمة آيت منصور عمروش) عن الدين الإسلامي والتقاليد القبائلية من جهة ومالت إلى الدين المسيحي والثّقافة الغربيّة من جهة أخرى، حيث أصبحت لا تبالي ولا تعباً بما يسميه مجتمعها تقديس الشّيم والمعتقدات. « ... نجد البطل يتحصل على التعليم الفرنسي ويتنكر لتقاليد مجتمعه وهذا الوضع يعرف بحالة إهدار المبادئ»²⁸، يظهر هذا أكثر من خلال زواجها مع " بلقاسم عمروش" على الطريقة المسيحية. حيث لم يذهب الشاب " بلقاسم " إلى أهل " فاطمة " ليطلب يدها كما جرت العادة في المجتمع القبائلي، وإنما

قصد الأب الأبيض ليطلبها منه، ثم إن " فاطمة " كان لها رأي بصفتها المعنية بالأمر حيث تقول: «... لقد طلبني أحد الشباب للزواج من قبل الأب " بالدي " وأراد هذا الأخير أن يعرف رأيي في الموضوع»²⁹.

كما يجسد الشاب " بلقاسم " شخصية أخرى تتعارض مع الدين والتقاليد، حين عارض السلطة الأبوية كما يوضح ذلك هذا القول: « ... بعد مدة يتصل بي الأب " بالدي " ليخبرني أن مشروع زواجي قد ألغي بسبب والدي الشاب اللذين لم يمنحاه رضاهما... وبعد مضي سنة من ذلك يعود الشاب ولقد تخاصم مع والديه، وهو يريد أن يتزوج بي»³⁰. وهكذا يتم الزواج على الطريقة المسيحية، تقول: «لا أتذكر جيدا كيف جرت الأحداث في ذلك الصباح. أذكر أنني، ارتديت ثوبا أبيضًا، ووُضِعنا في الصف حتى نذهب عند الآباء أين يقام التعميد وحفلة الزفاف، لقد قبلت الأخت شاننتال أن تكون عزابتي. لقد عمّدت أنا وبلونش(blanche) باسم الأب والابن وروح القدس»³¹.

نلاحظ، إذن، من خلال هذه المراحل عمق الصراع، إذ لم تعد " فاطمة آيت منصور عمروش " تبالي بالقيم الاجتماعية القبائلية، لا سيما وأن الشاب الذي ارتبطت به تخطى عقبة كبيرة في حق هذه المبادئ، وهي قرار السلطة الأبوية، مع أن لهذه الأخيرة وزنًا كبيرًا على الذكر والأنثى معا.

فكأنها بذلك تعطي صورة أخرى لإتمام الزواج غير التي أُلْفها المجتمع الإسلامي القبائلي التقليدي حيث تكون السلطة الأبوية مصدر القرار لأن الزواج في المجتمع القبائلي يعدّ " مشروع الجماعة لا الفرد... فالأولياء يبحثون عن عائلة شريفة ويلتقون ويتفقون، كل هذا دون علم المعنيين بالأمر (الزوجين)"³².

ويظهر الصراع كذلك حين تعيش في وسط اجتماعي قبائلي محافظ يقَدَس الشريعة، يدين بالدين الإسلامي (قرية إغيل أعلي)، كانت حياتها في هذه القرية مسرحًا لمثل هذه التناقضات. إذ تتحدّث عن ظاهرة تعدّد الزوجات معلنة رفضها لهذه العادة البالية - الديانة المسيحية ترفض تعدّد الزوجات على عكس الدين الإسلامي* الذي يبيحها - تقول: «...»

لاحظت وجود شابة صغيرة قالوا لي إنها الخطيبة التي اختارها والدا زوجي له... فحماتي يعتقد أن زوجي مثله بإمكانه أن يحب امرأتين».³³

أعلنت فاطمة عن رفضها لوضع حماها الذي تزوج بعدة نساء، وأوضحت الفرق بين حماها الذي يمثل المجتمع التقليدي المحافظ، وبين زوجها المسيحي المتحضر والمتفتح نتيجة تشبعه بالثقافة المسيحية الغربية، فهو ليس مثل والده، لا يستطيع أن يحب عدة نساء. على أساس أن الزواج المتحضر الذي توافق عليه هي، هو الذي يتم على أساس المحبة بين الطرفين، في حين أن زواج حماها هو زواج تقليدي يقوم على تبادل المصالح لا أكثر...، وذلك لأن « الزواج التقليدي يتم عادة بلا علم ولا محبة متبادلة ولا تعارف مسبق بين الشباب».³⁴

ونضيف إلى هذا غضب فاطمة " من ضرب حماها لزوجته، واستنكارها لهمجية هذا الرجل ووحشيته: «أتذكر دائما غضب حماتي... حين أمسك بشعر حماتي، وانها على ضربا»³⁵، فهي ترفض هذه المعاملة، خاصة وأن المجتمع الجديد الذي اعتنقت دينه وتبنت أفكاره، يعاقب كل من يعتدي على زوجته بهذا الشكل حيث « شهدت منطقة القبائل عددا كبيرا من المحاكمات من هذا النوع (المعاملة السيئة للزوجة من قبل زوجها) أقامتها العدالة الفرنسية في المنطقة».³⁶

ونتيجة لكل هذا لم تكن فاطمة تشعر بالارتياح في قرية (إغيل أعلي). بما أن هذا الوسط الاجتماعي لا يقاسمها أفكارها ولا يشاركها في دينها تقول: « لقد قضيت وقتا قصيرا في قرية (إغيل أعلي) وكنت أتوق شوقا للرجوع إلى عملي لأواصل أشغالي».³⁷

إن القيم والمثل الغربية قد وجدت مكانا لها في المجتمع الجزائري، وكان لهذه القيم المدافعون عنها والمعارضون لها... من جهة نجد الجيل الشاب يعتقد القيم الجديدة، في حين أن الجيل القديم، من الجهة الأخرى يقاوم بعنف للإبقاء على تقاليده وأعرافه.

لذلك يرفض أفراد المجتمع القبائلي الدين المسيحي، مما جعل فاطمة تعاني من مضايقات مجتمعها الذي كان يعيق ممارستها الدينية، إذ تجسد الفقرة التالية صراعا وتناقضا

واضحين بين جيلين من خلال هذا الحوار بين فاطمة وحماتها - تمثل هنا الشّخصية المتديّنة بالدين الإسلامي والمحافظة على التقاليد والعادات الاجتماعية - : « ترى الحماة الملابس التي هيأتها (فاطمة)، فتستفسر عن أمر خروجها. تحيب فاطمة: أذهب إلى الكنيسة*، فحن كما تعلمين مسيحيين».³⁸

فترد عليها حماتها قائلة: « لا يليق بشابة من عائلة عمروش الخروج في وضح النّهار، ويراهها كل سكان القرية إنّها فضيحة لا تُمحي، وستكون سخرية أمام الجميع ونحن عائلة لها مكانتها ». ³⁹ وبهذا الفعل تكون " فاطمة " قد خرقت قيم مجتمعها من جانبيين: أ. جانب اجتماعي: إذ لا يسمح المجتمع القبائلي بظهور المرأة خارج بيتها، خاصة أنّه يخضع «لقانون فصل الجنسين».⁴⁰

ب. جانب ديني: هي وزوجها يعتنقان ديناً لا يؤمن به المجتمع الجزائري، بل يرفضه ويرى فيه انحيازاً للحكومة الفرنسية. ترد حماة " فاطمة " عليها بقولها: « ... يجب أن تستيقظوا باكراً حتى لا يراكم أحد من سكان القرية وأنتم تتوجّهون إلى الرّوميين »⁴¹. نلمس من خلال كلمة " الرّومي " أنّ هذه المرأة المحافظة رأت في ذلك خيانة للوطن، حيث لم تنظر إلى الكنيسة من جانبها الدّيني - كما ترى ذلك " فاطمة " - وإنّما نظرت إليها من كونها استعماراً.

كل هذه الأمور ضايقّت البطلة، وكانت تأمل دائماً في الخروج من هذا الوسط الاجتماعي الذي ترى أنّه ليس أهلاً لها، ولا بدّ لها أن تخرج منه لتبحث عن مكان لها في مجتمع غير هذا، إن لم نقل يختلف تماماً عنه.

ونتيجة لما سبق اضطرّت فاطمة، وبسبب المضايقات إلى المغادرة برفقة زوجها إلى تونس، إلّا أنّها في هذا المكان الجديد وجدت ما يتعارض مع أفكارها، بسبب أنّ نظام هذا البلد الشّقيق لا يختلف كثيراً عن النّظام الجزائري. لذلك طلبت فاطمة من زوجها بعد أن قضت ستة أشهر في حي يقطنه المسلمون الانتقال إلى حي أوروبي، « كُنّا نعيش في حي إسلامي، يتكلمون اللغة العربية التي لا أفقه شيئاً فيها »⁴².

بعد انتقال فاطمة إلى الحي الأوروبي شعرت بالارتياح، خاصة وأنها كانت تعيش وسط جماعة إيطالية: «جبراني الإيطاليون طيبون معي، وكنت أذهب مع نسائهم إلى السوق»⁴³.

لا نستشف في حديث فاطمة آيت منصور عن الدين المسيحي التقديس والتمجيد لهذا الدين. مما يجعلنا نتساءل: هل كان اعتناقها للدين المسيحي عن قناعة راسخة؟ أو بسبب الظروف السيئة التي عرفتها في طفولتها. ففي الوقت الذي نبذها مجتمعها القبائلي، فتحت لها الأخوات البيض الباب- باب الميتم، باب المدرسة، باب المستشفى- فوفرن لها المأوى، المأكل، الملابس، والعمل أيضا. ويكفي دليلا على ذلك قولها: «...أما فيما يخص الدين فأعتقد، أنني لم أكن واثقة منه كثيرا. ولكن أوّمن بالله كثيرا.»⁴⁴ من ثمة تواصل حديثها قائلة: «لما أكد لنا الآباء البيض بأنّ وحدهم الذين عُمدوا يذهبون إلى السماء، لم أعتقد ذلك. لأنني فكرت في أمي، في تعبها، في صيامها لثلاثة أشهر، في حمل الماء إلى المسجد الذي فرضته على نفسها، فقلت: هل من الممكن أنّ أمي لن تذهب إلى السماء؟»⁴⁵.

وبعد مرور كل هذا الزمن لا يمكن لقارئ " قصة حياتي " لفاطمة آيت منصور عمروش أن ينظر إليها نظرة دونية، لأنها اتبعت المسيحية دينا لها، وخاصة بعد أن يدرك القارئ الصعوبات التي واجهتها منذ جاءت إلى هذه الدنيا.

يبدو لي أنّها قامت بدورها كما يجب، ولم تذكر مرة فيما سردته لحظة ضعف، وكنت ترى بأنّ الدنيا تقدم نحو الأمام، لربما لم تكن خارقة في حياته لكنها أدت دورها إلى جانب زوجها وتجاه أولادها على أحسن وجه، ويكفي أن يقرأ القارئ ويفهم بأنّها على الرغم من كل الظروف بقي وافية لأصلها لقبائليتها.

الهوامش

¹ - عبد الغني محمود: فن الذات، دراسة في السيرة الذاتية لابن خلدون، ط1، عمان، الأردن، 2006، ص21.

² - ضيف شوقي: الترجمة الذاتية، دط، دار المعارف، القاهرة، 1970، ص05.

³ - www.awu.org/book/05.

- 4 - إحسان عباس: فن السيرة، ط1، دار الشروق، عمان، 1996، ص10، 11.
- 5 - فهمي ماهر حسن: فن السيرة تاريخ و فن، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970، ص247.
- 6 - شعبان عبد الحكيم محمد: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية، ص12.
- 7 - ينظر: تهاني عبد الفتاح شاكر: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2002، ص 9.
- 8 - عرف فليب لوجون السيرة الذاتية كما يلي:
- « nous appelons autobiographie le récit rétrospectif en prose que quelqu'un fait de sa propre (surexistence. Quand il met l'accent sur sa vie individuelle, en particulier sur l'histoire de sa personnalité »
- Philippe Lejeune : l'autobiographie en France, Armand colin ; paris, 1971, p 14.
- 9 - فليب لوجون: السيرة الذاتية، الميثاق و التاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، ص22.
- 10 - زهور صدقي، حول حدود التخيل الذاتي www.doroob.com.
- 11 - ينظر: محمد الداوي: الحقيقة الملتبسة، قراءة في أشكال الكتابة عن الذات ص 12.
- 12 - ينظر جلييلة طريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص 12.
- * - المسيحية هي الديانة السماوية الثانية التي ظهرت في مطلع القرن الأول ميلادي في فلسطين و كان نبيها عيسى عليه السلام. و المسيحية كما عرفه القديس " بولس " الذي يؤمن بضرورة إعادة تأويل كل شيء في ضوء تعاليم يسوع المسيح.
- 13 - voir : Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie.
- 14 - voir : Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie.
- 15 - Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie, p 27.
- 16 - إسماعيل حاجم: الصدام الحضاري في الرواية الفرامكوفونية المغاربية، ص 18.
- 17 - Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie, p 42.
- 18 - Ibid, p 42.
- 19 - Ibid, p 38.

20 – Ibid, p 19.

21 – إسماعيل حاجم: الصدام الحضاري في الرواية الفرانكوفونية المغربية، ص 19.

22 – Voir: Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie, p 70.

23 – Ibid, p 74.

24 – voir: Ibid, p 78.

25 – Ibid, p 78.

26 – Henry Genevois, justice française et coutumes kabyles, p 36.

27 – Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie, p 97.

28 – عايدة أديب بامية: تطوّر الأدب القصصي الجزائري، ص 113.

29 – Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie, p 76.

30 – Voir: Ibid, pp 77, 83.

31 – Ibid, p 87.

32 – Pierre Bordieu, sociologie de l'Algérie, p 15.

* – قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَفِظْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ حَفِظْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوِلُوا﴾ سورة النساء، الآية 03.

33 – Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie, p 90

34 – إسماعيل حاجم: الصدام الحضاري في الرواية الفرانكوفونية المغربية، ص 30.

35 – Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie, p 93.

36 – – Voir: Laure Bousquet – Lefèvre, la femme kabyle, p 88.

37 – Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie, p 93.

* – الكنيسة: وهو المكان الذي تؤدي فيه الطقوس الدينية عند المسيحيين، ويطلق اسم الكنيسة أيضا على جميع المؤمنين المسيحيين، والشائع عند الكاثوليك و الأرثوذكسي وغيرهم أنها تضم جميع المؤمنين أحياء أو أمواتا، وتقسّم الكنيسة عادة إلى الكنيسة المناضلة التي تعمل في هذا العالم، والكنيسة المعذبة المكونة من المؤمنين الذين يقاسمون عذاب المطهر، والكنيسة المنصرة وهي جماعة القديسين في السماء، وفي الاستعمال الدارج تدل كلمة "كنيسة"

على جماعة منظمة من المسيحيين مهما اختلفت عقائدهم مثل كنيسة اللوثرية والكنيسة الإنجيلية والكاثوليكية وتعتبر كل منها أنّها الكنيسة الحقّة.

³⁸ – Ibid, p 106.

³⁹ – Ibid, p 106.

⁴⁰ – Voir: Laure Bousquet – Lefèvre, la femme kabyle, p 51.

⁴¹ – Fadhma Aith Mansour Amrouche : Histoire de ma vie, p 119.

⁴² – Ibid,p 140.

⁴³ – Ibid, p 141.

⁴⁴ – Ibid, p 75.

⁴⁵ – Ibid, p 75.